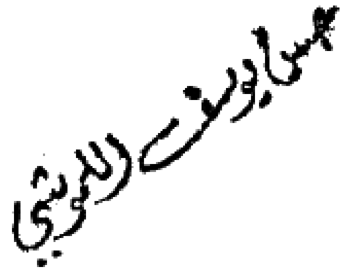
عبدالرحمن عياد سلامة

من أين تؤكل الكتف؟

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE



من أين تؤكل الكتف

عبد الرحمن عياد سلامة

من أين تؤكل الكتف

(مجموعة قصصية)

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

عبد الرحمن عياد سلامة

من أين تؤكل الكتف

الطبعة الأولى : **2018** م

رقم الإيداع المحلي: **2018/333**

رقم الإيداع الدولي: **9789959-25-921-9**

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: **7165022.21821+** - بريد مصور **4843580-21821+**

ص.ب: **75454** - طرابلس **Email: almosgb@yahoo.com**

إهداء

إلى كل عشاق القصة القصيرة
أهدي هذه المجموعة القصصية
البكر.

من أين تؤكل الكتف ؟

كان يحدث نفسه قائلاً:

- "الجميع يقولون بأنني لست من أهل البادية وأنني (حضري). لا أذهب إلى المناسبات. ولا أحرص على الزيارات إلا بدعوة. حتى الرحلات التي يخطط لها زملائي في العمل أكون أنا آخر من يعلمها، لأن فكرة أنني لست اجتماعياً سادت بين الجميع.."

كان في جلسته بالمصلحة التي يعمل بها يفكر في هذا الأمر كلما شرد ذهنه بعيداً عن مشاكل العمل، فجأة قطع صمته أحد الزملاء قائلاً:

- محمد زميلنا طلب أجازة. توفيت أمه بالأمس. يجب أن نذهب لتقديم التعازي له اليوم، نحن زملائه يجب أن نقف بجانبه.!

الكل أبدى موافقته، غير أن صاحبنا شرد ثانية:

- **"الجميع أرادوا الذهاب إلى زميلنا محمد، لمَ لا أذهب معهم؟! دائماً يقومون (بالواجب)، ما الذي يجبرني على المكوث؟! لماذا أتخلف عن الركب دائماً؟!"**

بعد أيام قضاها في صراع مع نفسه يعاني بين مد مشاركة أصحابه وجزر انطوائية جُبل عليها ورضعها في حليب مجتمعه (الحضري) والذي جعله يشعر بالغربة، صراع في بحر لجي من الأفكار كاد يعصف به. أخيراً استطاع ذاك المد أن يجعله يتخذ قراراً هو الأول من نوعه، قرر أن يذهب مع زملائه إلى صديقهم محمد، حدثهم بهذا الأمر، تفاجأ الجميع.! غير أنهم صعقوا عندما قال:

- **علينا أن نشتري خروفا ونأخذه معنا، فهو زميلنا وعلينا أن لا نذهب فقط للتعازي.**

لم يصدق الجميع، تهامس الأصدقاء من حوله:

- **ما الذي غيره؟!**

لم يترك لهم المجال ليتحدثوا عنه. طلب على الفور أن يقوموا بجمع ثمن الخروف، كان على كل منهم دفع ثلاثين

ديناراً، وفي اليوم الثاني ذهبوا جميعاً إلى منزل محمد، وهو كان أول الحاضرين.

دخل (المربوعة) في ساعة مبكرة يرتدي ثوباً فضفاضاً بعد أن اعتذر لزوجته عن تناول الفطور حتى يتسنى له تناول (غداء) ساهم في إقامته، جلس في تلك المربوعة والابتسامة تملأ محياه، المكان خال تماماً والوقت يذهب رويداً رويداً، بعد فترة دخل رجال لم يرهم من قبل، تلاشت تلك الابتسامة وتقطب حاجباه، أناس يدخلون تلك المربوعة فرادى وجماعات، ينظر إليهم بكل اشمئزاز، هذا الرجل لم يره من قبل، وذاك يعرفه. لكنه لم يشترك معهم في ثمن الخروف، تغيرت ملامح وجهه. أخذ يحدث نفسه مؤنباً:

- **ما الذي ورطني في هذا العمل؟! آه لو أتيت بمفردي ووفرت هذه النقود واشتريت بها لحماً لأولادي لأكلنا منه أياماً.! نحن ندفع وغيرنا يأتي ويأكل؟ ليس من عادتنا أن نشتري الخراف بمئات الدينارات ونوزعها لمجرد موت أم أحدهم، ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟!**

أخذ ينظر في زوايا المربوعة والتي ملئت عن بكرة أبيها.
قال في نفسه:

- **هل أنهض وأعتذر لهم وأذهب. وفي اليوم التالي استرجع نقودي؟.**

هو يعلم جيداً إنها فكره سخيفة قد تجعله أضحوكة بين زملائه وقد يؤرخ لتلك الفعلة، وعاد من جديد للتلفظ بألفاظ الندم، لم يكترث بالرد على أصحابه الذين يسألونه عن أولاده والأسرة وأعماله الأخرى، يكتفي فقط بالتحديق في الوجوه قائلاً في نفسه:

- **أي أولاد وأنا أهدر ثلاثين ديناراً دفعة واحدة؟.**

الحضور ممن لا يعرفونه يعتقدون أنه متألم لموت أم صديقه وزميله في العمل، يحدق فيهم ويبكي في نفسه:

- **والله من يستحق التعزية هو أنا.! فأنا فقدت ثلاثين دينارا وانتم تتحدثون ولا يهمكم الأمر،**

أفكار وهواجس مؤلمة في نفسه. قطع حبل أفكاره احد الشباب أصحاب المنزل قائلاً بصوت عال:

- **" أربعة.. أربعة "**

فخفق قلبه وعرف أنها اللحظة الحاسمة فوجبة الغذاء على مشارف تلك المربوعة، "تربع" وكان في مواجهته رجل يعرف انه مدير احد المصارف بالبلدة، وعن يمينه احد الزملاء الذين لم يشاركوا في دفع ثمن الخروف، وعن يساره رجل ملابسه رثه نحيف، يبدو أن الفقر قد نال منه، جلسوا متقابلين ووضعوا أمامهم تلك الوجبة (صينية رز). فوقها أربع قطع من اللحم فتقطع قلبه، تذكر الثلاثين ديناراً، أربع قطع، ثلاثة منها صغيرة وواحدة قطعة (كتف)، يحدق في قطعة الكتف ويمنى نفسه بها ويقول:

- **هذه القطعة ربما هي خير عزاء في نقودي التي ضيعتها في ثمن الخروف اللعين.**

بدأ الجميع أكل الرز، أما هو ففي صراع نفسي، أفكاره كادت أن تعصف به، نظراته تلتهم قطعة الكتف التي لا يعلم ما هو مصيرها، تارة يقول سآكل الرز من تحت قطعة " الكتف " حتى تسقط أمامي وعندها لن يتردد الجميع في إعطائها لي وأخرى يقول: لا.. سوف أدعوهم لتوزيع اللحم فيستحون ويعطوها لي. تسائل:

- وإذا لم يستحوا وكانت تلك (الكتف) عند أحدهم؟ عندها ستخرج روحي. فهذا زميلنا فقير الحال كثير الأولاد وأنا أعرف انه اخذ (سلفة) من المصرف تقصم ظهره ولا يأكل اللحم إلا في عيد الأضحى وذاك الرجل يبدو عليه الفقر المدقع، ربما انقض عليها وقد تكون هذه القطعة هي الأولى التي يأكلها في حياته ويبدو أيضاً انه ممن يحضرون المناسبات لأكل اللحم دون دعوة، أما الرجل الذي يقابله فهو مدير أحد المصارف حالته المادية جيدة، واللحم ربما كرهه فهو حتما يأكل اللحم وجبتين في اليوم، يقول في نفسه ماذا افعل ؟ هل انهض وأصلي ركعتين وأدعو فيهما الله أن يجعل تلك الكتف من نصيبي، يا رب ماذا افعل...؟ صراع مرير في نفسه... كان يتصبب عرقاً ويتحرك في مكان كأنه جالس على جمر، ماذا افعل؟

قرر أخيرا أن يضع تلك القطعة "الكتف" أمام مدير المصرف عله يرفضها فيأخذها هو وبالفعل قرر ذلك ودفع

بتلك القطعة أمامه، غير أن مدير المصرف رفضها واقسم لصاحبنا أن يأكلها، تنفس عندها الصعداء وهدأت نفسه وانقض على تلك القطعة علها تشفي غليله واغرورقت عيناه محدثاً نفسه:

- **لن أكررها مرة أخرى فأنا حضري ولست بدوي.**

طرقات

تحلقت الأسرة حول الأب الذي جلس كعادته في سرد حكايا حبلى بالحكم والأشعار والنصح على ألسنة بشر وجان وحيوان، حكايا تبدأ خيوطها مع خيوط شمس المغيب من كل يوم وتنتهي بعد صلاة العشاء مباشرة، على ضوء فنار تفوح منه رائحة الجاز التي اعتادت عليها أنوفهم، الجميع ينصت لقصص رب الأسرة، الأولاد والزوجة وعجوز طاعنة في السن والدة الراوي ومنبع أغلب هذه القصص والروايات التي طورها وأضاف لها حوارات مشوقة، وفي ليلة شتوية كان الأب يسرد إحدى قصصه وأفراد الأسرة يقاومون النعاس، إلا الولد الأصغر مصطفى الذي صرعه سلطان أولى الحكايا فغط في نوم عميق، الأعين ترصد حركة الراوي بتركيز شديد، والآذان تعانق حروفه باهتمام، وهذه الحكايا هى بمثابة التلفاز والمسلي في ليالي هذا المنزل الذي تلفه العتمة باستثناء ضوء الفنار الخافت. ...

وفي لحظة مشوقة من عمر الحكاية، وقبل أن يهم الراوي بسرد جملة مهمة، فإذا بصوت طرقات قوية سريعة ومتتالية على الباب:

دق دق دق دق دق دق دق دق دق دق

فزع الجميع وتملكهم خوف شديد وضاقت هذه الحلقة السردية حتى التصق الأبناء بأبيهم وأصبحوا أكثر براعة منه في أداء أدوار شخوص حكاياته، في رواية عنوانها الذعر والوجوم ،...

فقال الوالد في نفسه:

(من اللي يدق ع الباب بالشكل هذا، أزعمه حكومة ويريدوا مني حاجة، بس أنا موش داير شي، وحتى ضناي أصغار في السن، أكيد في حاجة غلط، ..)

هواجس وأفكار تدور في رأسه، بينما الطرقات تكاد تخلع الباب والوجوه جميعها تكسوها علامات الذعر والخوف، بينما الطرقات في تزايد مستمر:

دق دق دق دق دق دق دق دق دق دق دق دق دق دق

وقالت الجدة المقعدة في نفسها:

(أزعمه ولدي داير شي، لكن أولدي نا عارفته أكويس يخاف الله ويحترم الناس كلها والناس تحترمه، يا رب استر، يا رب أستر، يا رب أستر..)

وخرجت من بين شفتيها هذه الجملة الأخيرة، وأخذت تردده على الملأ:

(يا رب أستر، يارب أستر ، يا رب أستر)

حاول الأب أن يفك هذه الحلقة من الأبناء والبنات والزوجة الذين التصقوا به من الخوف، وقال لهم بعد أن استجمع كل قواه وهو يقف: ما تخافوش، سلم إعويلتي، وخليكم هنا، ونا توة إنحل الباب، أكيد شي واحد يريد حاجة.. ... سلم إعويلتي خليكم في مكانكم.

وجر الوالد رجليه المثقلتين واتجه صوب الباب، الذي ينتفض من شدة الطرقات.

دق دق دق دق دق دق دق دق دق دق دق دق دق دق

اقترب من الباب وفتحه بيدين ترتعشان، فإذا بهم رجال كثر يرتدون زياً موحداً، دخلوا بحركات سريعة منتظمة، وتوزعوا في أرجاء المنزل، لحظات ثم دخل رجل وبخطوات

سريعة، وبجواره ثلة من الرجال، وامتلأ ذاك المنزل العتيق القاطن خارج إحدى المدن بعشرات الكيلومترات، دقائق مرت وسط استغراب وذهول صاحب المنزل، أسئلة كثيرة كادت تعصف برأسه، فعلى الرغم من الكم الهائل من الحكايا التي يحفظها والقصص التي يرويها إلا أنه لم يجد تفسيراً لما يحدث في منزله في هذه الليلة، مرت دقائق ثم خرج ذاك الرجل - والذي تبدو عليه علامات النعمة والراحة – على مهل واستقل إحدى السيارات الفارهة، ثم خرج كل الرجال وركبوا السيارات الأخرى، وقبل مغادرة السيارة الأخيرة في هذا الموكب نظر أحدهم إلى الأب صاحب المنزل، بعد أن رأى الحيرة الممزوجة بالخوف والاستغراب والدهشة والرعب، وقال بصوت قوي: لا عليك أيها الرجل فسيادة الوزير أراد دخول الحمام.

نهاية خدمة....

اتكأ الحاج سالم على وسادة بالية في صالة شقته العتيقة يحتسي كوباً من الشاي الأحمر المنعنع، وبجانبه زوجته حليمة، ارتشف الشاي بصوت مسموع، فقاطعته قائلة: يا سالم عندما اسمع هذا الصوت أعرف أن لديك كلاماً تريد قوله. ...، فرد عليها برشفة أكثر قوة من سابقتها، ثم أردف قائلاً: إيه... يا حليمة، لقد هدني العمل مع الدولة، ولم أتحصل على أي مكافأة باستثناء ورقة تثبت إنهاء خدمتي، فقالت له: أنا أعرف هذا، وأنت لم تأت بجديد، فارتشف الشاي للمرة الثالثة بصوت قوي، ثم وضع الكوب على الأرض، بعد أن أفرغ ما به من شاي، وقال وهو يبتسم: يا حليمة يبدو أن الدولة هذه المرة تذكرتنا بعد هذه السنوات، فمنذ قليل اتصل بي أخي وصديقي بشير وأخبرني أن هناك كشفاً يحوي عدداً من الذين تعتزم الدولة تكريمهم هذا العام، وأنني أحد هؤلاء ومطلوب مني

أن أذهب أو من ينوب عني هذه الأيام إلى العاصمة، وما أن انتهى من حديثه حتى أطلقت حليمة زغرودة مدوية، أقيضت ابنتيها الشابتين، وعمت الفرحة المنزل، وحتى محمد الابن الأصغر الذي نام مبكراً هذه الليلة لم يهنأ بنومه فقد اخترقت هذه الزغرودة أذنيه. ...

فصاح سالم معبراً عن غضبه وندمه لأنه أخبرها في جنح الليل، لكنها لم تكترث بتمتمته، وأخذت تردد: " الله كريم ولابد ربك يعوضك خير، أنت خدمت واجد وتستحق كل خير...... "

لحظات والتف الأبناء والزوجة حول الحاج سالم يتحدثون عن هذا التكريم وعن الأحلام، الجميع منى النفس بسيارة حديثة، البنتان قالتا: السيارة تقلنا إلى الجامعة، أما الصغير محمد فقد وعدهم بأنه سيتعلم القيادة، فقاطعهم الحاج سالم قائلاً: المهم من سيذهب لاستلام ما تكرمت به الدولة، فأنا كما تعرفون لا أستطيع تحمل مشاق السفر إلى العاصمة، فقالت حليمة: يا سالم سيذهب أخي علي، فقال لها: صدقتي، وبالفعل توجه علي صوب العاصمة بعد أن تأبط توكيل نسيبه

سالم، ليلة قضاها علي في أحد فنادق العاصمة، وفي الصباح الباكر، وصل إلى تلك المؤسسة، لم يكترث به أحد، حدثهم عن التكريم، فقيل له: انتظر. ..، مرت ساعات وهو يترقب، ثم نودي على اسم سالم، فأجابهم علي بعد أن أراهم ذاك التوكيل، ثم اصطحبه أحد العاملين إلى مستودع كبير، وقالوا له وقع على استلام شهادة التكريم، وانتظر الهدية، فخفق قلبه، وانتظر أن يقال له: استلم مفتاح السيارة، دقائق مرت، ثم علم بأن ذاك التكريم عبارة عن سجادة، فاغرورقت عيناه بالدمع، وخشي العودة ولقاء الحاج سالم وأسرته.

النتيجة

كان يحدث نفسه قائلاً:

(النتيجة بكرة ويستر الله....)

هاجس النتيجة يكاد يعزله عن كل من حوله، يقف أحياناً ويجلس أحياناً أخرى، لم تغمض عيناه ولم يعرف طريقاً للنوم، حاول أن يعمل أشياءً تنسيه ذاك الهاجس، دخل غرفته فوقعت عيناه على خزانة كتبه فازداد عنفوان هاجسه وكاد أن يعصف برأسه، نظر إلى يمينه فرأى صورة أمه فهدأت نفسه وتذكر السنين الدراسية الماضية والتي اجتازها بسلام بفضل دعاء أمه الذي يتردد صداه دائماً في نفسه:

(الله يربحك يا فوزي والله إيقعد أسعدك)

(وان شاء الله يكتبلك في كل خطوة فرج)

اقترب من الصورة، قبلها، واحتضنها، فازدادت نبضات قلبه وسمع صدى دعاء أمه:

(الله يربحك يا فوزي والله إيقعد أسعدك)

(وإنشاء الله يكتبلك في كل خطوة فرج)

ثم نظر إلى الصورة وأخذ يردد بصوت مبحوح والدموع تملأ عينيه:

(إنشاء الله يا يام ربنا يسمع منك)

احتضن الصورة مرة أخرى وأغمض عينيه واتكأ على وسادته بعد أن أراح جسده المتعب فوق سريره، واستغرق في بحر من التأمل والتضرع فأيقضه هدير وزبد الهاتف، رفع السماعة فإذ به صديقه محمد:

- (فوزي أبش أخبارك)
- الحمد لله
- (كنه صوتك متغير في حاجة)
- لا والله
- (أسمع الجماعة كلهم قاعدين عندي ،أيش رايك أتجينا، واتغير جو، وبعدين كلهم ينشدوا عليك)
- (خلينا انتلاقوا بكرة في المدرسة وخلاص)

- (أسمع يا فوزي نحنا نرجو فيك وان كان ماجيتش انحطوك في حق.)

وأقفل محمد الهاتف، لكن هاتف النتيجة لم يترك فوزي بمفرده.

حاول أن ينسى فوزي الأمر لكنه أيقن أن جلسة أصدقائه في منزل محمد قد تنسيه هذه الأفكار، فدلف صوب منزل محمد وحاول أن يندمج مع أقرانه في جلستهم، جلسة تعلو فيها الضحكات أحياناً مع ذكريات أيام الدراسة، وتقليد بعض المدرسين مع تعليقات ونكات جعلت من الوقت يمر سريعاً، وفجأة تذكر فوزي أن غداً هو موعد إعلان النتيجة، فقال لمحمد وأقرانه:

- (يا محمد الوقت تأخر ونا لازم نمشي للحوش)
- (أسمع يا فوزي هلك أكيد أمرقدين وبعدين هم عارفينك قاعد عندنا)
- (أنا لازم نمشي انشوف أمي عشان تدعيلي، يا جماعة بكرة النتيجة)

- (يا فوزي كنك خايف، وبعدين أن كان أنت رسبت ايريد ينجح من ؟ أكيد أنت ناجح)
- (ربنا يسمع منك، خلاص توة نرقد معاكم لكن بكرة توة تمشوا معاي للحوش عشان انشوف أمي، وبعدها نمشوا للمدرسة).
- (أمرك يا سيد فوزي).

نام الجميع بعد أن قضوا ليلة ضاحكة يتجاذبون أطراف أحاديث ومواقف دراسية، وكان فوزي يتقلب على فراشه يصارع كوابيس مزعجة، ثم نهض ونظر إلى الساعة وإذ بها الحادية عشر صباحاً، فأيقظ أقرانه، ثم قصدوا منزل فوزي الذي كان يسرع الخطى للقاء أمه التي يتردد صدى دعائها في مسمعيه:

(الله يربحك يا فوزي والله إيقعد أسعدك)
(وانشاء الله يكتبلك في كل خطوة فرج)

وصلوا إلى المنزل، وكان فوزي شارد الذهن يخيم عليه الحزن، فقال له محمد:

- (خلاص فك هالتكشيرة، أوصلنا حوشكم، شوف أمك وراك إطول، رانا تأخرنا.)

- (خلاص يا جماعة ثواني وانجيكم.)

ظن الجميع أن لقاء فوزي بأمه سيطول، وأن محمد سينعم بدعاء والدته السحري، مفتاح نجاحه وتفوقه في الدراسة، لكن فوزي خرج مسرعاً والأسى يلفه من رأسه حتى قدميه، فصاح محمد:

- (كنك يا فوزي أيش فيه)
- (أمي موش قاعدة، مشت من الصبح لأقاربنا خارج طبرق
- (يا راجل فجعتنا)
- (انتوا عدوا للنتيجة، ونا خلوني قاعد)
- (مستحيل، انت لازم تمشي معانا، معقولة اتفاول على روحك بالرسوب).

ذهبوا جميعاً إلى المدرسة، واقتربوا من لوحة إعلان النتيجة، وكانت الأجواء مغايرة عن كل السنوات السابقة، الوجوه يعلوها الوجوم، اقترب فوزي، واخترق هذه الصفوف المكتظة التي تعانق المكان، ولم يكترث بعبارات الاستهجان، حتى وصل إلى قوائم الأسماء، قرأها عدة مرات، لم يجد اسمه بين الناجحين، اسودت

الدنيا في وجهه، وامتلأت عيناه بالدموع ثم انحدرت في جوفه كالجمر، لحظات مرت ولفضته الصفوف الطائفة والمتلهفة لمعرفة النتيجة، ليجد نفسه منكفئا على أحد جدران المدرسة يبكي بحرقة:

(يا يام رسبت يا يام ، يا يام النتيجة يا يام، يا يام ضاعت الأحلام، آه يا يام، آه يا يام،. ......)

كان فوزي يبكي بحرقة فوقف بجانبه محمد وربت على كتفه، فنهض وقال بصوت نال منه النحيب وأجهزت عليه الحرقة والألم:

- (يا محمد رسبت يا محمد، ايش انقول لمي، وايش انقول الهلي، كيف انوري وجهي، يا اعوينك يا محمد انت نجحت والجماعة كلهم انجحوا.)
- (آه يا فوزي يا ريت ما نجحت، يا ريت ما قريت.)
- (لا يا محمد انت نجحت عدي فرح هلك ونا كم يوم وتوة نهدى وننسى النتيجة)
- (يا فوزي نا اللي أحلامي ضاعن، تذكر يا فوزي يوم ما تعاهدنا نا وياك انخشوا كلية الآداب وندرسوا لغة عربية ونواصلوا اقرايتنا يا فوزي ضاعت الدراسة.)

- (يا راجل فهمني انت موش نجحت، كنك تبكي، وبعدين توة انت ستقرأ ونا بعد الدور الثاني وإلا السنة الأخرى نلحقك.)
- (نقرا وين يا فوزي ما خلاص القراية انتهت.)
- (والله ما ني فاهم كلامك.)
- (كيف انت ما قريتش الإعلان المكتوب.)
- (لا والله أي إعلان؟)
- (كاتبين إن كل الطلبة اللي انجحوا في الدور الأول أحيلت استمارتهم للثانوية العسكرية وعليهم الالتحاق الأسبوع الجاي).

وعندها هدأت نفس فوزي وتنفس الصعداء، وعرف سر دعاء أمه الذي يتردد صداه:

(الله يربحك يا فوزي والله إيقعد أسعدك)

(وانشاء الله يكتبلك في كل خطوة فرج)

مخاض

أوقف سيارته أمام مستودع بناه داخل السور الكبير الذي يحيط ببيته كالطوق، نزل من سيارته وفتح ذلك المستودع وانهمك في رص صناديق الزيت والطماطم في صندوق عربته التي لها فضل كبير في ثرائه المفاجئ، وما أن فرغ من تعبئة الشحنة وربطها بحبل متين حتى ركب سيارته وانطلق بسرعة غير آبه بصراخ زوجته الحامل مكتفياً بنظرة إلى منزله وردد في نفسه: (يستر الله) وأطلق العنان لتلك السيارة لتبدأ رحلة مكرورة صوب الشرق تشق الظلام الدامس، محدثة إطاراتها ضجيجاً تارة، وتارة يختفي هذا الضجيج عندما تدغدغ تلك الإطارات الرمال الناعمة، فلا تسمع سوى صوت احتكاك نبات المثنان الذي يلامس زجاج نافذتي السيارة، أو خشخشة حطب الرمث الذي تدوسه هذه العربة المجنونة، كان مسرعاً وعيناه تراقبان المكان عن كثب، وأضواء البيوت التي انطلق منها تتلاشى رويداً رويداً، وكذلك نباح الكلاب، وضع يده في

جيبه وأخرج علبة تبغ (مارلبورو) وأشعل سيجارة ووضعها بين أسنانه، وسحب الدخان بقوة ثم نفث دخاناً مشكلاً دوائراً بيضاء ملأت المكان وتكثفت على زجاج السيارة، ولم ينتبه لرداءة الرؤية أمامه، لأن ذهنه كان مشتتاً بين التفكير في شريكة حياته التي تعاني آلام المخاض وبين مجهول ينتظره في طريق غير آمن نحو الحدود، كان يقلب الأمور في رأسه ويحصي الأموال التي سيجنيها من هذه الصفقة ليضعها في رصيده، ليبدأ التفكير في صفقة أخرى في مشواره لتحقيق حلم حياته، فهو كان يمني النفس ببناء قصر في مدينة طبرق، وأن يلم شتات أبنائه من أقسام الداخلي في هذه المدينة التي لا غنى لسكان القرى المجاورة عنها، أفكار تدور برأسه، ثم تذكر أنه في مهمة خطرة فأطفأ السيجارة وشغل مساحات الزجاج لكي تتضح الرؤية أمامه، دقائق معدودة مرت قبل أن يصل إلى ربوة محاذية للسلك الذي يفصل بلدة أمساعد الليبية عن بلدة السلوم المصرية، أوقف السيارة عندما رأى عدداً من الرجال يحملون (شيلات) فارغة ووضعوا داخلها كل هذه الصناديق وحملوها وانطلقوا مسرعين ليذوبوا في الظلمة الحالكة، بعد أن

قبض من كبيرهم الذي علمهم التهريب ثمنها، ودلف راجعاً صوب بيته كالسهم، وكان يدعو الله أن يجد زوجته في حالة طيبة ويحاول الوصول في وقت قصير، فهو يعلم أن بلدته تخلو من طبيب ولادة متخصص، وأن القابلة التي بالحي ذهبت منذ أيام إلى الأراضي المقدسة لأداء العمرة، نظر إلى ساعته وجدها تقترب من الرابعة صباحاً وخيوط الفجر بدأت تتشكل خلفه، بينما أضواء بلدته شرعت في رسم علامات إصرار للوصول في زمن قياسي، كان يحاول أن يسبق الزمن ويدور في براح الأسئلة، هل سيجد زوجته في حال طيب أم أن لعنة التهريب قد حلت ببيته، وما أن وصل إلى ذاك البيت حتى دخل مسرعاً، لتهدأ نفسه عندما وجدها على قيد الحياة، فحملها بين ذراعيه ووضعها على مقعد السيارة بجانبه وعمد مدينة طبرق محاولاً قطع مسافة مائة وأربعين كيلو مترا في أقل زمن ممكن، كان يحاول تفادي السيارات المحاذية والمواجهة له في الطريق الضيق، ينظر أمامه و دقات قلبه تتصاعد، وأذناه أصمهما صراخ زوجته التي تقبض على مسند المقعد بكل قوة أحياناً، وتحاول أن تمسك يد زوجها اليمنى من شدة ما تعاني

أحياناً أخرى لكنه في كل مرة ينتزع يده منها انتزاعاً خوفاً من أن تنقلب بهما السيارة، وقبل أن يقطع نصف المسافة انقطع صراخ زوجته فجأة، ليسمع بعدها صراخ مولوده بين رجليها، أصابه ذعر شديد، وأوقف السيارة على يمين الطريق، وكان مرتبكاً، نظرت إليه زوجته بعد أن حملت وليدها وقالت له: مبارك عليك ابنتك....

الكفيف

نهض بعد أن تحسس المكان ليجد عصاه التي تساعده على التنقل في ردهات بيته الذي حفظ زواياه عن ظهر قلب، حاولت زوجته أن تفترش له (ديسة) داخل سور منزله، جلس في مكانه المعتاد، سألها عن وجبة الإفطار، وعن شراب الشاي، قبل أن يشعل سيجارته الأولى في يومه الواقع في أحضان الظلمة والذي يشبه كل أيامه، نسخ متشابهة سوداء لرجل فقد حبيبتيه، جلست بجانبه زوجته وأخته وبناته تتوسطهم (سفرة) الأكل، وفجأة سمعوا صوت أحد الباعة يصيح بأعلى صوته:

(معانا دبش. ... معانا دبش)

طلبت الزوجة من إحدى بناتها أن تنادي على البائع، نودي على صاحب (الدبش) الذي جلس بعد أن وضع ما يحمله من بضاعة على الأرض، التفت حوله النسوة غير

مكترثات برجلهن الذي نال منه العمى، أخذن يقلبن ما يحمل من ملابس ويسألن عن الأسعار، أسئلة جميعها حول ما يحمل من بضاعة، غير أن أحد الأسئلة كان طائشاً، وانطلق كالسهم، سؤال حول هيأة البائع والتي تجعل الناظر يغوص في بحر من الحيرة والتساؤل، ويبدو أنه كان يتمتع بوسامة ومنظر طيب غير أن مصيبة ما حلت بهذا البائع المسكين، زوجة الكفيف تحدق في هذا البائع ثم لم تتمالك نفسها عندما سألت ذاك السؤال الذي انحرف وابتعد عن فلك البيع والشراء:

- (أنت وجهك كنه، داير حادث من قبل)
- (لا يا ست أنا ما كنتش كده)
- (وايش اللي خرب وجهك)

وكان البائع المصري رسمت على وجهه خريطة جراء حادث عظيم، أذنه اليمنى لا تكاد تراها باستثناء ثقب كثقب الإبرة، أما عينه اليمنى وكأن طائرا ما اقتلعها من مكانها، وجبينه يعج بالخطوط المتداخلة والمتوازية من أثر العمليات الجراحية والحروق.

- (أيه يا ست هانم، أنت حتقلبي علي المواجع، أنا كنت في حالي وعايش وسط أهلي وفي بلدي، وكنت مسؤول في شركة محترمة، لكن منه لله، واحد الله لا يسامحه من ليبيا كان سايق عربيته زي الطيارة وكان سكران طينة، وكنت أنا ومراتي جنب الطريق نستنا في تاكسي وبعدين حصل اللي حصل، ماتت مراتي، وأنا زي ما أنت شايفة، الكلام ده من عشر سنوات في شارع عشرين بحي العصافرة بالإسكندرية).

عندها تغير وجه الزوج الكفيف، وتقطب حاجباه، وأصابه ذعر شديد، وتذكر تلك الليلة المشؤومة التي ملأ فيها بطنه بزجاجات خمر أفقدته البصيرة ليختل توازن سيارته وتنحرف عن مسارها، وتيقن أنه غريم هذا البائع المسكين، فبعد أن ظن أنه فلت من العقاب خصوصاً بعد أن قيدت القضية ضد مجهول، هواجس وأفكار جعلته يدور في مكانه ويقول في نفسه:

- (معقولة أتكون صدفة، هذا أكيد جاي ومترصدني، ويريد يأخذ ثأره مني، ممكن قاعد توة ايصوب علي قدام زوجتي وبناتي، ايش أندير، انقوللهن اطردنه لأنه جاي ينتقم مني، آه لو نا بنظري وانشوف، بس باين عليه من صوته انه راقد ريح ودعاه هو اللي كسرني وخلاني نفقد انظري...).

مصير

اللّٰهُمَّ: وصلنا طيبين...

جملة ترددها الجدة، بينما رب الأسرة ممسكاً بمقود السيارة بكلتا يديه، يقلب بصره، يمشط الأمكنة التي أمامه، يتذكر أحياناً أن عليه الوصول إلى مبتغاه في أقرب وقت، بينما الأولاد والزوجة يتجاذبون أطراف حديث سفري، وكيف سيقضون هذه الأيام الموعودة، كيف سيحرصون على الاستمتاع أكثر وقت ممكن، خصوصاً أن الوقت الذي سيقضونه لا يتعدى أسبوع، أحاديث وآراء وضحكات، ونكات، وأحاجي وألغاز، بينما الجدة من حين إلى آخر تحاول أن تردد:

- (سوق بالراحة، الله يربحك، العجلة من الشيطان)

عندها يحاول أن يقلل من سرعته، لكنه ما يلبث بعدها أن يعود لسرعته السابقة، الوقت يمر، والطريق ضيق، والسيارات تجتازه بطريقة استفزازية، يحاول أن يلحق بها، غير أن كوابح أدعية والدته تلجم السيارة التي تحمل في بطنها الأسرة التي لا

تعلم ما يخبئه الزمن، أحست الأم بشعور غريب، خصوصاً بعد أن سمعت قول الجدة:

- (بالراحة، يستر الله، راك تقطعنا،)

حاولت الأم أن تخفي خوفها، أن تتغلب على هذا الشعور،

سألت الزوجة عن المسافة التي تفصلهم عن منفذ (أمساعد)البري، أجابها على مضض:

- (قريب نصلوا، وكلي ربك...)

أحس بضيق في التنفس، عربته كذلك تشكو ضيق الطريق، وجرأة السيارات المنتحرة ذات المصابيح المزعجة التي تجعل السائقين يتقاذفون السب والشتائم، بينما عربته تترنح وكأن وقودها النبيذ ،

فجأة صرخ الصمت بأعلى صوته، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، حاول أن يكبح جماح السيارة، التي تمنعت عليه لأول مرة، فوصلت منتهاها عندما اصطدمت بسيارة أخرى وجهاً لوجه، لتنتقل كل الأسرة إلى وجه الله بعد أن تناثرت الجثث وهربت الإطارات، تحولت السيارتان إلى قطعة معدن واحدة.!!

الصندوق الأسود

كنت وصاحبي نتجاذب أطراف الحديث، بعد أن احتسينا كوبين من الشاي المنعنع، وقال لي بخبث: هل سيأتي يوم وتصل فيه صداقتنا إلى طريق مسدود، فأجبته بالنفي – بعد أن نهرته – على تساؤله عديم اللون، فأضاف أنا أعرف أنك لن تتخلى عني حتى لو ضحك لك الزمان، لسبب بسيط، لأنني صندوقك الأسود، الذي يحمل تسجيلاً بالصوت والصورة لمسيرة حياة ومشوار وأحداث وأسرار ومصائب وملذات،. ..... وأخذ يعدد ويهدد، فذكرني صندوقه الأسود بتلك الطائرة التي شهدت تفاصيل رحلاتي معه، أشياء ممتعة وذكريات أغلبها مؤلمة، ومخجلة، أسرار وخبايا، قضايا، نساء، وأناس مجهولين، ودفاتر، وقوارير، وظائف، وأعمال، سفر داخل وخارج الوطن، مشاريع متواضعة، وفرص ضائعة، أشياء كثيرة نعرفها معاً، وهفوات كنا بطليها، شريطي مع هذا الصديق أراه يمر أمامي

بحلوه ومره، لكنني لا أخفيكم سراً أنه خالجني شعور بالخوف من أن يفترق أحدنا عن الآخر ويحمل هذا الصندوق المربوط عن بكرة أبيه بالأسرار والخبايا.

انتحار

دخلت حجرتها خلسة، أغلقت الباب بإحكام، كانت متوجسة و تمشي على أطراف أصابعها ويداها ترتعشان، تتلفت وتحتضن حقيبتها السوداء المنتفخة، جالت بعينيها الذابلتين في أرجاء الحجرة، تذكرت الأيام التي قضتها هنا بين هذه الجدران التي تحمل صوراً كثيرة لها في مختلف مراحل العمر، فها هى صورتها مع والديها، وتلك أخرى وقد بدت أكثر نضجاً، النهدان أكثر شخوصاً، الفم مرسوم كالعنقود، والطول فارع، والشعر مسترسل، فكانت كلما وقع نظرها على صورة تشعر بأن طعنات تخرم قلبها المكلوم، ذكريات ومواقف تطاردها مثل أنفاس أعياها التعب وجعلها جسداً يحتضر بعد أن دب فيه موت الحياة، فقدت كل شئ غير إصرارها على فقد كل شئ، حاولت أن تخترق هذه الدوائر المتلاحقة من ذكريات الوداع الأخير، استدارت وتحسست سريرها تلامسه بأصابع باردة، تفقدت ملابسها، ووقفت أمام

المرآة، هواجسها حجبت عنها الرؤية، فأسقطت على الأرض زجاجة عطر فارغة كانت هدية أولى من حبيب العمر والذي سيزف على عروسه مساء اليوم ، حاولت أن تجمع قواها حتى لا تدخل ثانية في تلك الدوائر، فالوقت يمر سريعاً، نظرت إلى الساعة، كانت قريبة من الثانية عشرة ظهراً، فالموعد يبدوا مناسباً لتنفيذ تلك الجريمة، فتحت حقيبتها وأخرجت ذاك الحبل، وتحسست ثخنه ومتانته، وشرعت في تشكيل عقدة فيه، وبدأ قلبها يخفق بسرعة شديدة، جذبت كرسيها الذي طالما شهد نجاحاتها الدراسية وصعودها إلى مراتب علا، لكنه هذه المرة شاهد وحيد على صعودها إلى الهاوية، استجمعت ما تبقى لها من عزم، لتقف على الكرسي بعد أن جعلته قريباً من دولاب ملابسها، أيقنت أن النهاية قريبة، وضعت ربطة الحبل حول عنقها وأحكمت شدها بقوة، جحضت عيناها، أحست باختناق شديد، أخرجت لسانها، الحبل يشتد، قدماها لم تزل تلامس الكرسي، بدأت تحس ألماً في أوردتها، جسدها غطاه عرق غزير، أصابها دوار الموت ففكرت في الحياة، لكن فكرة الانتحار لا زالت تسيطر عليها.

حازني ظلام ليل

كان يقضي النهار في عمل دؤوب وعندما تتوارى الشمس عن الأنظار في المغيب يخلد للراحة ويريح جسده استعداداً ليوم آخر، كان يكره الظلام منذ صغره، فمنذ أيام كان خارج المنزل يعود أحد أصدقائه، خرج بعدها عائداً إلى المنزل وعندما كان في منتصف الطريق أضاع الرشاد إلى منزله لأن الكهرباء تخرج عن الخدمة دون سابق إنذار، حاول الوصول إلى منزله في أقرب وقت ممكن لكن الظلام كان حالكاً، فالإنارة انقطعت عن كل المدينة، كان يسمع صراخ الأطفال يخرج من النوافذ، الجميع ينادي أين الشموع، تذكر زوجته وطفله الصغير فأسرع الخطى، وما أن اقترب من أحد البيوت حتى خرم أذنه أحد الأبناء يصرخ ويبدو أنه تذكر أن لديه امتحان غداً وكان بحاجة إلى أكثر من ثلاث ساعات لمراجعة دروسه، بيت آخر به رجل يدعو الله أن يتم إصلاح الكهرباء ويبدو أنه يخشى على والدته الطاعنة في السن من طعنة البرد الذي يحاول جاهداً التصدي له من خلال المدفأة

التي يغذيها "أيدسون" صباح مساء، كل هذه الأصوات يسمعها جعلته يفكر في بيته وأسرته فواصل الركض ليصل إلي بيته الذي ذاب في ظلام صنعته شركة الكهرباء ،وكان أثناء هذا المشوار يفكر في حال موظفي الكهرباء في بلدته وكأنهم على خلاف مع المواطن، فكثير من المحطات والشبكات لا تسري الكهرباء في أسلاكها طيلة اليوم، حاول أن يصل إلى منزله بسرعة فهو على يقين بأن هذا الانقطاع لن يصلح إلا في اليوم التالي أو في الأيام التي تليه، عندها ربما يتحرك رجال الصيانة والذين في كثير من الأحيان يعملون بدون تجهيزات وشعارهم: (المنجي حاضر) يهرول ويسأل نفسه بصوت مسموع إلى متى تستمر هذه الإخفاقات، وهذا التدني في مستوى الخدمات التي تقدمها الشركة للمواطن، فانكماش الأسلاك حتماً سيودى بسريان الكهرباء وقد يودي بحياة المارة أيضاً، أسباب وأفكار كانت تدور برأسه، وعندما اقتربت من إحدى البنايات أيقن أنه على مشارف منزله، وسمع قبل أن يفتح الباب صراخ ابنه الصغير الذي يخشى الظلام الدامس، فتح الباب وأشعل له مصباح هاتفه النقال، هدأت نفسه ثم سألته زوجته ما الذي أخرك، قال لها: "حازني ظلام ليل......"

الحادث

توجه محمد إلى قرية تبعد عن بلدته مائة وأربعين كيلو متراً ، ودع أسرته ذاهباً لحضور مناسبة اجتماعية هناك، وما أن وصلت إلى محطة سيارات الأجرة حتى انقض عليه عدد من السائقين بطريقة مخزية، كل يشده صوبه، أمام مرأى ومسمع مرور المدينة المبجل، فهذه السيارات تعمل بدون رخص غير رخص الخطر الذي يحيط بالركاب من جميع الجهات، ركب إحداها بعد أن قرأ دعاء السفر وبعض من قصار السور التي يحفظ، كان الخوف يلفه من رأسه حتى قدميه، بدأ السائق الرحلة بعد أن ضمن 24 ديناراً سيقبضها من أربعة ركاب إن كان لهم في العمر بقية، حاول بطريقة ما أن يجعل السائق يخفف من سرعته، شرع في حديث معه وعقد النية على أن يقص عليه بعض الحكايا، لكنه بادره بقوله: أنا لدي موعد بعد ساعة ونصف، هدأت نفسه، فساعة ونصف كافية لكي يصل إلى المنطقة التي يريد بسرعة معقولة، لكن من يملك زمام هذه الرحلة بدأ ثانية يزيد من سرعة هذه السيارة فزاد جنونها، حاول أن يتمتم بكلمات ليست كالكلمات، لكنه طعنه خوفاً

عندما عرف منه أن موعده الذي يزعم هو في مدينته التي انطلق منها، وما زاد الطين بلة هو حال هذا الطريق البائس، مطبات وتكسير وحفر، طريق يتيمة ومكتظة بسيارات متعددة الجنسيات، فهى الوحيدة التي تربط أولى المدن الليبية بجمهورية مصر العربية، فالمناطق كانوا يمرون عليها مرور الكرام في سرعة خرقاء، والسائق لا يكترث بالطريق ولا بزبائنه الذين بلغ منهم الذعر مبلغا، هدأت نفسه لدى وصوله إلى محطة تفتيش، فبعد هذه البوابة ببضع كيلومترات اضطر السائق للوقوف لأن عشرات السيارات كانت تقف على الطريق، نزل الركاب من السيارة، حاول شق الجموع، لم يستطع فالزحام كان شديداً، سأل أحد الوقوف، فذكر أنه حادث مروع، سيارتان اصطدمتا وجهاً لوجه فصارتا قطعة معدن واحدة، ثمان رجال قضوا نحبهم في غمضة عين وانتباهتها، 'إنها كارثة، دهش متأسفاً وقال له:

- ما اسم السائقين وهل تعرفهما ومن أي قبيلة هما ؟
- لا أعرف بالضبط لكنني سمعت أن إحدى السيارتين كانت متجهة صوب إحدى القرى لحضور مناسبة اجتماعية. .
- وما هي تلك المناسبة ؟

- سمعت من بعضهم أنها مأتم لرجل طاعن في السن يدعى صابر.

فما أن فرغ الرجل من حديثه حتى ازدادت نبضات قلبه وخشى أن يكون أحد الركاب من أقاربه

- وتلك السيارة ما هو نوعها ؟
- السيارة من نوع (شفر)
- وما لونها ؟ لا تقل أنها بيضاء
- نعم إنها بيضاء

اضطرب الرجل، وبدأ يتصبب عرقاً، لم يتمالك نفسه، كادت دموعه تنهمر، حاول أن يتماسك، وكان يردد في نفسه:

أخاف أن تكون سيارة شقيقي عمر، أخي منذ قليل قال أنه سيغادر إلى المأتم. ..

لكنه حاول أن يطمأن نفسه، مردداً أن شقيقه الأكبر عمر قيادته حكيمة ويحبذ الاعتدال في السرعة. .

كانت الأفكار والهواجس تحاصره لم ينتبه للرجل الذي يتحدث معه، فكان الرجل يتحدث ضانا أنه يسمعه فكان يقول:

- يوم أمس وقع حادث سير مماثل راح ضحيته أسرة كاملة، ومنذ ثلاثة أيام سقطت شاحنة من هذا المكان

بعد أن قذف سائقها فوق صخرة فقطعت رقبته، فالمسكين ضحى بحياته وتفادى الاصطدام بحافلة حبلى بالركاب، وقعت حوادث كثيرة على هذا الطريق، فقدنا خيرة شبابنا، وزهقت أرواح كثير من السواح والمسافرين، ولا زالت الحوادث مستمرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله..

لم يستمع لحديث الرجل، كان شارد الذهن، فقطع صمته يد ربتت على كتفه وصوت كان وقعه كالسحر، أزال كل مخاوفه، كان صوت شقيقه عمر الذي أوقفه ذات الحادث المروع.

مرزوق

كان نائماً في بيته المصنوع من شعر الماعز، يتقلب في فراشه الخشن، وقبيل مجئ شمس الأصيل أيقظته نسمة باردة تأتيه في ذات الوقت كل يوم وكأنها منبه اعتاد إيقاظه ليبدأ ليل جديد، مرزوق اعتاد هكذا حياة سهر بالليل ونوم في النهار، أما رجال النجع فيخرجون منذ بزوغ الفجر للبحث عن لقمة العيش فمنهم من يرعى الأغنام، ومنهم من يجمع الحطب، وبعضهم من يجمع التمور من المناطق المجاورة، وعندما يأتي المساء تأتي الهبات من الجيران لمرزوق، فهو لا يحرك ساكناً يقضي ليله جالساً بالقرب من ناره التي يشعلها بعد الغروب وتظل متقدة طوال الليل، ويحرص على ترديد أهازيجاً وغناءً عله يسري نفسه وسط هذه الظلمة الحالكة والسكون الرهيب، أما زوجته فقد ملت نصحه و الحديث معه ليغير من نمط حياته، صرخت في وجهه كثيراً، عايرته بأنه عالة على أقربائه وجيرانه، هددته بتركه والذهاب إلى بيت أبيها،

تحدثت مراراً حتى تعب فاها وتيبست حنجرتها وبح صوتها ولكن لا حياة لمن تنادي، ثم لا تجد أفضل من أن تخلد للنوم،..

وفي هذه الليلة سمع مرزوق نباح كلاب، الصوت كان قريباً، ورأى خيال رجلين قادمين، اقتربا، كانا منهكين، اقتربا من بيته وقال أحدهما:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها الرجل

- وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته تفضلا، .. تعالا واجلسا هنا

- شكراً لك أيها الرجل أيها الكريم بن الكريم.

جلسا على الفور وأحضر لهما مرزوق قدحاً من الحليب وقطعة من الخبز ووضع إبريق الشاي على حافة النار، قال أحدهما:

- أيها الرجل نحن نريد منك طلباً..

- إن كان في استطاعتي، أبشرا من الآن.

- بارك الله فيك، بصراحة نحن نريد أن نستأجر منك حمارك لثلاثة أيام فقط.

- طلبكما مجاب.

قال هذا الوعد دون أن يفكر في عواقب الأمر، الزوجة سمعت كل ما دار بينهم، وقبل أن يغادرا تنحنحت الزوجة، فجاءها مرزوق، بادرته قائلة:

- أصحيح تريد أن تعطيهما الحمار، أمجنون أنت، الحمار هو ما نملك من هذه الحياة، يكفي أنك لا تعمل وتريد أن تضيعه، ألا تعلم بأننا نحمل عليه الحطب، ونرد به الماء من النبع،...

- اصمتي يا امرأة، لقد وعدتهما ولن أتراجع في كلامي، كانا يتحدثان بصوت مسموع، نادى الرجلان على مرزوق، طلبا منه نسيان الأمر، أصر على الوفاء بوعده لهما، أخذا الحمار بعد أن وعداه بالرجوع قبل انقضاء اليوم الثالث، ومعهما ثمن الإيجار، ودعاه وغادرا النجع في زفة كلابية يعلوها النباح، بينما زوجته تولول وتصرخ على حمارها الذاهب في مهمة رسمية!

وكان مرزوق، أشعل سيجارة وأخذ يردد أهازيجه بصوت عال، تركته الزوجة ودخلت إلى خدرها مرددة: حسبي الله ونعم الوكيل

وصل الرجلان إلى مغارة تتوسط أحد الجبال، وكانا قد استخرجا كنزا ثمينا، عشرات القدور الحبلى بالذهب الخالص، حملا هذا الكنز بعد أن جعلاه في جرابين كبيرين ووضعاهما على ظهر الحمار بعد أن التصق كل جراب بجهة من بطن هذا الحمار، وقبل أن يغادرا المكان كان هذان الرجلان ينظران إلى بعضهما نظرات جشع وطمع وغدر، فكل منهما يقول في نفسه: لما لا يكون هذا الكنز كله لي وحدي، فكرا معاً ذات الفكرة في وقت واحد وهى التخلص من الآخر، تماسكا وطفقا يكيلان اللكمات القوية لبعضهما، كان العراك شديداً، سالت فيه الدماء، حمى الوطيس، بينما الحمار يئن من الحمل الثقيل، يدور في مكانه، ينظر إلى الرجلين وعيناه تدمعان، يحرك ذيله أحيانا، الصراع على أشده بينهما، كانا متماسكين على شفا جرف هار فانهار بهما على الفور وتدحرجا ونالت منهما صخور ذلك الوادي الحادة، وتقطعت جثتيهما إلى

أشلاء، الحمار ظل يدور في مكانه، تعب من الوقوف، استدار ورجع من حيث أتى، قطع كل تلك المسافة متجهاً صوب مربطه أمام بيت مرزوق، فكان كلما سمع نباحاً يسرع الخطى.

..

بينما مرزوق ينتظر ويترقب في ذلك المساء، يضع مزيداً من الحطب كلما خبت النار، وزوجته تكثر من الصياح، تذكره أنها حملت هذا الحطب على رأسها بعد أن ضيع الحمار.

فجأة سكتت ثم قالت:

- أنصت يا مرزوق ألا تسمع نباح الكلاب

- وكيف لي أن أسمع وأنت تولولين ؟

- أنصت فقط

- بلى لقد سمعته الآن

- أيكون الرجلان قادمين إلينا؟

- احتمال كبير، فموعد مجيئهما الليلة

- أتضن أنهما سيفيان بوعدهما ؟

- من يدري أيتها الزوجة، قد يأتيان ومعهما ما وعدانا به من نقود...

اقترب النباح، وسمعا قرقعة في الخارج، نهض مرزوق ونظر خارجاً وإذ به الحمار يبحث عما يأكله بجانب مربطه، اقترب مرزوق، وجد الذهب على ظهره، أدخله البيت، قبل الحمار، أخذ يجري داخل البيت، وزوجته لم تتفوه بكلمة واحدة.

محظوظ

كان يتحين الفرصة في أن يجد ما يأكله، يرتدي عباءة سوداء، يخرج من بيته في الصباح، يضع ملعقة في جيبه وأحياناً معها (قرن فلفل خضر). ..

يفعل ذلك مراراً، هذا اليوم كان محظوظاً لم يبتعد كثيراً عن بيته، مرق من بعيد سيارتين واقفتين أمام أحد المنازل، اقترب منهما، نزل من إحداها رجلان وثلاثة نساء، واحدة منهن ترتدى بدلة عرس عربية وحلياً، والسيارة الأخرى تحمل في صندوقها خروفين أملحين، لم يجد نفسه إلا داخل ذلك المنزل مع هؤلاء الضيوف، ظن أهل العروس أنه من أقارب العريس، بينما اعتقد أهل العريس أنه من أهل البيت، كان جالساً متربعاً ينتظر الوليمة بفارغ الصبر، فهو قليل الكلام، يحسن استغلال الفرص، ويعرف من أين تؤكل الكتف. ..

جيئ بالوليمة ولازال الحظ يلازمه، وضعوا أمامه قطعة لحم كبيرة لم يترك منها سوى العظم، وغاص بملعقته التي أخرجها

بحرفية وسرية تامة في صونية الأرز المغطاة بالمكسرات وقطع من الكبدة المشوية، انتفخت بطنه، وضع علبة (البيبسي) في فمه ودلق ما فيها من شراب في بطنه دفعة واحدة، تقرع بصوت عال، حمد الله، شرب فنجاناً من الشاي الأخضر، غلبه النعاس، اتكأ على جنبه ووضع العباءة على وجهه، خرج كل من في المربوعة، تركوه نائماً ، بعد ساعة أيقظته عجوز طاعنة في السن قائلة:

- أنت استيقظ فمن جئت معهم تركوك وذهبوا
- الحقيقة أيتها الأم أنا فقيه على باب الله، رأيت الضيوف دخلوا فدعوت نفسي ودخلت. .
- هل أنت حقاً فقيه. .. لقد جئت في وقتك تماماً، فنحن لدينا طفل صغير كثير البكاء ولا يقبل على شرب الحليب من (الرضاعة). .

عرف مغزى كلامها فقال لها وهو يتلعثم:

- لا بأس احضري (الرضاعة)

وعندما أمسك بها بين يديه كان الحظ يلازمه أيضاً، فقد اكتشف أن كل ما في الأمر (الرضاعة) تحتاج فقط إلى ثقب كي

يستطيع الطفل مص الحليب، قرضها بأسنانه، وقرأ سورة الفاتحة، وناولها إياها، وما أن وضعت الأم (الرضاعة) في فم الطفل حتى شفط كل الحليب.

خرج بعدها من ذلك البيت بعد أن أقسمت له تلك العجوز أن يأخذ عشرة دنانير..

الشيخ

كانت الفتاة تعيش صراعاً داخلياً طاحناً، تفوق من إغماءتها ساعة وتفقد الوعي ساعة أخرى، سيطر الشحوب على وجهها، هاجمتها جيوش اليأس وأكثرت في نظارتها الطعن والتشويه، وأحالتها إلى جسد واهن، كانت تترنح في مشيتها داخل البيت، قال والدها:

- نحن سنسافر غداً إلى إحدى البلاد، سمعت أن شيخاً ماهراً يعالج هكذا أمراض. ..

ردت الأم:

- حاول ثانية فربما يكون هناك من على يديه الشفاء، هذه ابنتنا الوحيدة.
- نعم أنا قررت ذلك، وسنغادر غداً بإذن الله، عليك أن تستعدي وابنتك لنغادر صباحاً باكراً. .

انطلق الثلاثة إلى ذاك الشيخ، وجدوه يتهيأ للذهاب إلى السوق، فاجأته السيارة ، نزل والد الفتاة والأمل يحدوه بأن يرجع إلى بيته غانماً وقد شفيت ابنته من هذا الوهن، أخبره بالأمر، تلكأ الشيخ واعتذر منهم لانشغاله بشراء ضروريات أسرية من السوق، لكن الأب المسكين أقسم لهذا الشيخ أن يصطحبه، فهو يعلق آماله في شفاء ابنته عليه، يطلب رضاه في كل خطواته، فكلما وقعت عيناه على شئ يهب على الفور ويدفع ثمنه، لم يدعه يشتري شيئاً من السوق، كان خائفاً على ابنته الوحيدة من أي شئ ومن كل شئ، يراقبها في كل تصرفاتها، بعد تبضع الشيخ عادوا إلى بيته، دخل الشيخ قائلاً:

- احم.. دستور.. يا أهل البيت.. أفسحوا الطريق، تفضلوا..

دخلوا إحدى الحجر، وقال هذا الشيخ الذي لا يتجاوز عمره أربعة عقود:

- مما تشكو ابنتك ؟

- بصراحة. . لا نعرف ما هو داؤها، فمنذ ثلاث سنوات ونحن في تعب مضني، وحياتنا في نكد بسبب هذا المرض. ..
- هل لديك أولاد غيرها. ..؟
- لا، هى ابنتي الوحيدة.
- هل عالجها طبيب من قبل ؟
- كل أطباء المدينة زرناهم
- هل قرأتم عليها شيئاً من القرآن ؟
- نعم، هناك إمام وخطيب المسجد المجاور لنا قرأ عليها شيئاً من القرآن، وذكر لنا أنها لا تشكو من شئ وعليها التحلي بالصبر والمداومة على الذكر والمحافظة على الصلوات المكتوبة، لكن حالتها ساءت في الفترة الأخيرة، فنصحنا أحدهم بالمجئ إلى هنا وأملنا فيك كبير.
- استغفر الله أيها الرجل،. . بعد تناول الغذاء سنرى ما الذي سنفعله.

وأخذ الشيخ يمرر حبات المسبحة الكبيرة بين أصابعه مردداً كلمات استغفار بصوت عال تارة وتارة أخرى يخفض صوته ويتمتم بكلمات مبهمة، وكان المكان تلفه رائحة البخور وتتصاعد منه الأدخنة وتشكل دوائراً تتسلل إلى كل حجر البيت، تناول الجميع تلك الوجبة، نودي على الفتاة جاءت تمشي على استحياء، ترتدي جلباباً فضفاضاً، جلست بجانبه، سألها عدة أسئلة كانت تجيبه بخجل، وأحياناً كان الصمت جوابها، طلب منها أن تنزع المنديل الذي يغطي وجهها، حركته قليلاً، رأى عينيها، أحس بشئ ما في داخله، فقال لمن معه في تلك الغرفة القابعة في ذيل البيت:

- لا أستطيع أن أعالجها أمامكم، لو سمحتم أخرجوا من الغرفة ؟
- نعم سنخرج.. المهم أن تشفى ابنتي

خرجوا جميعاً من الحجرة، نهض الشيخ وأحكم قفل الباب، وقال بصوت أكثر رومانسية:

- ها نحن قد أصبحنا لوحدنا، انزعي هذا المنديل
- حاضر..

- ما شاء الله، ما هذا الجمال، حرام على هذه العينين أن يصيبهما الوهن !
- شكراً لك
- أرأيت عندما تبتسمين تزدادين جمالاً..

اقترب منها، تحسس جسدها، وضع يده على صدرها لم تتفوه بكلمة واحدة، لم تعترض، أحست بغثيان، ساعدها في خلع ما تبقى من ملابسها، ارتمت في حضنه، فض ما بجوفه داخلها. أحست بنشاط كبير، ارتدت ملابسها في لحظات، وأدارت مفتاح الغرفة، كانت الأبخرة تغطي المكان ، عاد الشيخ إلى مكانه حاملاً سبحته بعد أن ألقى فوق كتفيه تلك العباءة السوداء مردداً بصوت جهوري: الحمد لله، الحمد لله، فدخل الرجل مستبشراً، عندها ألقت ابنته نفسها بين ذراعي والدها قائلة: لقد شفيت يا أبي. ...

شكوى

كان جالساً بجانبي يدعو الله ويتضرع داخل أحد المساجد، وعيناه تذرفان الدمع، يردد بصوت مبحوح: اللّٰهُمَّ لا تنزل الغيث، يا رب الأرباب فكنا من المطر، يا الله يا عالم بحالي لا تنزل علينا المطر، اللّٰهُمَّ لا تنزل الغيث استغيثك يا رب أن تسمع دعائي، ..

حقيقة كنت مندهشاً من هذا الدعاء، وتناسيت أنني في مسجد وصرخت في وجهه ونهرته على هذا الدعاء، فقال لي:

- بالطبع أنت لا يهمك شئ من أمر المطر، بل أنت حتماً من أصحاب المساكن الصحية الذين تشعرون بالأمن والراحة والدفء والسكينة، أما أنا ففي كل فصل شتاء أعذب، بل أرقص كالمجنون في جنح الظلام، البرد خصمي، والرياح عندما تتحرك تعلن علي الحرب بلا هوادة، أصوات الزنك أصمت أذناي، والأتربة أستطعمها في حلقي صباح مساء، بل أتنفسها في كل حين، أما المطر فإنه مرعبي، يأتيني في

المنام، فعندما تتلبد السماء بالغيوم أركض أنا وزوجتي وكأن مسا أصابنا، نحمل الفرش ونضعه في ركن من أركان الغربال الذي نسكنه، ونغطيه بالنايلون، ونهرع إلى جارنا نودع لديه جهاز التلفاز لكي لا يصاب بنعمة ذلك الغيث، وما أن يبدأ المطر في الهطول حتى نبدأ في توزيع الأواني داخل الحجرات، ونقضي عدة أيام في حضرة سيمفونية غيثهوفن تعزف على قطرات داخل أواني اعتادت كل شتاء أن تشكل بانوراما مطرية، أطفالنا ترتفع حرارتهم، ثم تنخفض لتبدأ في الارتفاع ثانية، المطر علمنا البخل فلا نستطيع أن ندعو أحداً للبيت، لأن الضيف قد لا يجد مساحة فارغة بين الصحون، هل عرفت لماذا أخشى هطول المطر ؟.

لم أتفوه له بكلمة واحدة، فقال لي مرة أخرى:

- لا تخف فأنا كل عام أدعو بهذا الدعاء، ورحمة الله وسعت كل شئ.

صلاة الجمعة

شعر بامتعاض شديد، أعياه تأنيب الضمير، فكلما عزم الأمر على الذهاب لحضور خطبة الجمعة مبكراً، يجد نفسه خارج المسجد يترنح تحت لسعات الشمس الحارقة، يقطر عرقاً، وتنال من مؤخرته بقايا حصى، تؤلمه، تمضي تلك الدقائق وهو يتحرك في مكانه ممنياً نفسه بإقامة الصلاة، لينهض بعدها متوجعاً، أردافه (تتنمل) وقدميه قد انحبس عنهما الدم، وما أن ينتهي من الصلاة حتى يعود إلى بيته ولم يفقه شيئاً من الخطبة، يفعل ذلك في كل جمعة، حتى أنه لم يعد يكترث بلبس الثوب ناصع البياض، في تلك الجمعة ألهبته سياط التأنيب، نالت منه، أوجعته تفكيراً، جعلته طريح الفراش أياماً، وذات صباح نهض نشيطاً معافاً، دخل الحمام، فتح (الدش) شعر براحة وانتعاش عندما بدأت المياه الفاترة تدغدغ رأسه وتتلاعب بشعره الكثيف، الماء انساب على كامل جسده حتى أزال تعبه وخموله، خرج من الحمام، نظر إلى الساعة الحائطية التي كانت تشير إلى العاشرة صباحاً، قال في نفسه: أخيراً سأصلي ظهر الجمعة في وقته ولن يفوتني أي جزء من

الخطبة، سأجلس مقابل الخطيب، أخيراً سأكحل عيني برؤية هذا الشيخ الجليل، وسأنعم بنسمات المراوح التي تملأ سقف المسجد بعيداً عن ضربات الشمس الحارة، وقف أمام المرآة ملقياً نظرة على هندامه وابتسامة الرضا تملأ محياه، ثم خرج مولياً وجهه شطر المسجد، وهذه المرة خرج مبكراً حتى أنه لم ير السيارات التي تملأ المكان المجاور، ولم يصادف في طريقه الفتية الذين يحملون سجادات صغيرة في أيديهم، ففرحة وصوله مبكراً كانت عارمة، وكان من أوائل الذين دخلوا المسجد، لم يجد سوى بضع من المصلين، جلس في الصف الأمامي، قرأ ما تيسر من القرآن، أذن مؤذن، رفع يديه إلى السماء وشكر الله أن مكنه من الحضور مبكراً، مرت خمسة عشرة دقيقة، لم ير سوى قليل من المصلين، أقيمت الصلاة، كبر الإمام تكبيرة الإحرام، ساورته شكوك، نظر إلى لوحة مواقيت الصلاة، لكنه لم يستطع النهوض لصلاة ظهر الخميس.

الفهرس

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE